

الأمومة والطفولة في الإسلام

مخيل إي . أننا أمام هذا البحث في إطار من حتمية
الاجابة عن هذا السؤال : هل هناك فواصل
منظورة أو مستورة بين الأمومة والطفولة ؟ أم أن هناك
وشائج خالدة وواطدة بين الطفولة والأمومة ليس الى تحديها
من سبيل ؟

ويخيل إلي . . أننا حين نخلص إلى إجابة صادقة عن
هذا السؤال نكون قد خلصنا من خلال ذلك إلى مواجهة
الموضوع هكذا في تبليج واثلاق . .

وفي يقيني أننا نسبح في الطين إذا بدأنا مثل هذا البحث
هكذا في عفوية عريانة ، لا تتعمق حقائق هذه الروابط ،
ولا تهوم خلف آفاقها البعيدة لمعانقة مشارقها الأصلية . .
ولنبداً معاً . .

هل هناك أمومة بدون طفولة ؟ أو طفولة بدون أمومة ؟
الذي أعرفه أن « شيئاً » لا يمكن أن ينبثق هكذا من « لا شيء »
وان صفة « الأصل » لا نخلعها إلا على ما يحمل في طبيعته
الوجودية أفرعاً وأغصاناً . .



لا يمكن أن نتحقق إلا بتحقيق مقدماتها . . وأعني بمقدماتها الإنجاب . . والطفولة لا يمكن
أن تولد من فراغ ، أو تنبثق من عدم . . لا بد لها من أمومة . . ومن هنا . . يتأكد لدى
البداية في غير تعمّل أو اعتساف ، أن تلازماً جذرياً خالداً ينهض بين الأمومة من جهة . . والطفولة من جهة
أخرى . . ومن هنا يتحتم كذلك أن تتعانق المجالات وتتشابك ، فلا تقوم الحواجز الشاهقة بين طبيعة الحديث
عن الأمومة . . وطبيعة الحديث عن الطفولة . .

قد يقال هنا : ليس من اللازم أن توجد الطفولة ليتحقق معنى « الأمومة » في الأنثى . . فما أكثر ما رأينا
عبر أجيال البشر ، ومراحل التاريخ من أمهات ، لم يعقبن ذكراً ولا أنثى ، ومع ذلك فقد كن أمهات
رائدات . . أليست أمهات المؤمنين — مثلاً — لنا أمهات . . مع انحسام الروابط المادية بيننا وبينهن ؟ . . قد
يقال هذا في مثل هذا الصدد . . ولكنه لن يخرج عن أن يكون حيلة ذهنية بارعة ، تلقنتنا عن الحقائق الموضوعية
المنشودة في مثل ذلك البحث ، لتتوه بنا في مجاهيل التربص الفكري ، الذي يترك الأعماق ويطفو على السطح
في حركة رعاشة رعناء !

نحن لا نجعل أن أمهات المؤمنين لنا أمهات . . ولا نجعل كذلك أن كل أنثى في تاريخ البشر ، مهما
كان لونها . . أو جنسها . . تبرع على عرش الأمومة « الروحية » للملايين . . إذا استوت على أفق معين من
آفاق التفوق الإنساني . .

ولكننا هنا — في مثل هذا البحث — لسنا بصدد الحديث عن الأمومة بمعناها العائم الغائم ، وإنما نحن بصدد
الحديث عن الأمومة « النوعية » التي تضم جناحيها على أفرانها الصغار ، ساكبة حنان قلبها في حنايا قلوبهم ،
وناسلة ريش جناحها لتدفئ به قرومهم ، وسافحة أيامها ولياليها على أصابع الزمن ، لترى — بعد رحلة
ربداء — إلى أطفالها الصغار ، وقد استووا أيقاعاً . . وتعملقوا رجلاً . .

نحن بصدد الحديث عن الأمومة الخالدة ، التي عناها الإبن البار الرحيم محمد رسول الله صلوات الله عليه وسلامه - بكلماته : « الجنة تحته أقدام الأمهات » .

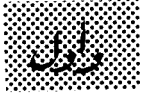
ولنا بعد ذلك جولة مترامية المدى مع ألوان أخرى من الأمومات . .

ولكني أتساءل : هل الإسلام هو الدين الوحيد الذي انحنى في غبطة وشمول على الأمومة الخالية . . والطفولة الخضراء ؟ أم أن كل شرائع الأرض والسماء قد عرفت لهذين الكائنين حقهما من العطف . ونصييهما من الرعاية والتكريم أم أن للإسلام موقفاً خاصاً يتميز به بين سائر الشرائع ، وكافة القوانين ؟ يجعل لموقفنا من الأمومة والطفولة على السواء فلسفة خاصة واتجاهاً فريداً ؟ . . وهذا هو الذي ستجيب عنه هذه الصفحات . .

ولكن . . قبل أن ننمضي مع الإسلام الرائد في رحلته مع الأمومة والطفولة . . لا بد لنا من المأمة خاطفة بمكانة كل منهما فيما عدا الإسلام من نظم . . وفيما سوى الشرق من أرجاء . . حتى يتسنى لنا من بعد أن نقيم موازنة عادلة بين فلسفة الإسلام في هذا الصدد ، وبين فلسفات أخرى نبعت من هنا أو من هناك . .



ما يبدو هنا حين نبغى مقارنة ، أو نهدف إلى موازنة . . المجتمع الجاهلي ، الذي جاء الإسلام لتصحيح مفاهيمه وتعديل أوضاعه .



كيف كان وضع الأم في هذا المجتمع ؟

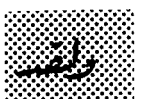
وكيف كانت رعاية الطفولة فيه ؟

أما كيف كان وضع الأم في المجتمع الجاهلي ؟ فأبسط ما يقال فيه . . انه وضع تؤهل له طبيعة عربية متأبية ، ترى في عراقاة الأصل ، وطيب الوعاء ، وشموخ النسب . . جحافل من المعاني تقاتل في حومة التزال مع الجحافل الضارية . .

حتى لقد كان مجرد تعريض الأم للون من ألوان الضعة ، أو شكل من شكول الهوان ، يثير في آفاق هذا المجتمع حرباً ضارية ضروساً ، لا يعلم أحد ما مداها ، ولا إلى أي حد ينتهي بها الجماح !!



حدثوا أن عمرو بن هند ملك الحيرة قال يوماً لجلسائه : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟



قالوا : نعم . . أم عمرو بن كلثوم .
قال . . ولم ؟

قالوا : لأن أباه مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب . . وبعلمها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتة ، فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن تزور أمه أمه . فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت « ليلي » أمه في ظعن منهم . . وأمر عمرو ابن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا . . ودخل ابن كلثوم إلى جانب الرواق ، وكان بين الاثنين صلة نسب . . قالوا . وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطرف . وتستخدم « ليلي » . فلما فعل قالت هند لزارتها بعد أن اطمأن بها المجلس : ناوليني « يا ليلي » ذلك الطبق . .

فقلت « ليلي » في نفور وانقه : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت هند عليها وألحت . وإذ ذاك صاحت « ليلي » : واذلاه . يا لتغلب ! ! فسمعها ابنها فثار الدم في وجهه . . وانتفض انتفاضة المحموم

وقال : لا ذل لتغلب بعد اليوم . ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب إليه مهتاجاً وأطاح به رأس ابن هند ! ! وأنشد يومئذ معلقته مرتجلاً :

أبا هند فلا تعجل علينا	وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأننا نورد الرايات بيضا	ونصدرهن حمراً قد رويانا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا . واوعدنا . رويدا	مى كنا لأملك مقتويننا
على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهوننا
إذا لم نعمهن . فلا بقينا	لشيء بعدهن ولا حيننا

ومهما يكن من أمر هذه الحادثة . . صدقاً ، أو إحالة ، أو تزييفاً . . فانها أبداً لا تفقد ظلالها الرائعة العميقة ، التي تؤكد دور الأم ومكانتها السامية في هذا المجتمع الجاهلي العريض . .

أرأيت كيف أن محاولة للتحويل من شأن « أم » كانت سبباً في قتل ملك .. وثورة قبيلة ؟ . . إن مثل هذا المجتمع كان من غير شك يقدس الأمومة ، ويرى فيها حمى لا بد أن يحمى . . ومعنى خالداً كبيراً لا بد أن يسان . .



أردنا مزيداً من الوثائق التاريخية التي تؤيد هذا المترع ، وتزكي هذا الاتجاه . . فحسبنا أن نرجع

إذا

إلى أسماء طائفة من قبائل العرب ، وبطونها . . لنرى كيف كانوا يعتزون حتى بالانتساب إلى الأم . . ويرون في ذلك مفخرة لهم . . وتخليداً لذكراها . . وقلب معي صفحات التاريخ ، فستلقي لا محالة برتل من هذه الأسماء : كبنى الخندف . . وهي ليلي بنت عمران القضاية وعنها تشعبت بطون كثيرة من العرب كهذيل ، وكنانة ، وأسد . . وكأم الخندف : وهي ضرية بنت ربيعة بن نزار التي ينسب إليها حتى ضرية . . وكبنى جديلة : بنت مدركة بن إياس واليها تنتسب قبيلة عدوان . . وكذلك بنو جندلة . . وبنو بجيلة . . وبنو العبدية . . ورقاش . . ومزينة وعفراء . . وباهلة . . وسلول . . والعبلات . رهط الثريا بنت عبدالله بن الحارث صاحبة عمرو بن أبي ربيعة نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد الله ابن جاذب ^(١) .

هذا قليل من كثير . . لو شئنا أن نتبعه عبر أجيال العرب لما وسعنا مثل هذا البحث ، وليس من همنا أن نحشد هنا نقولاً تاريخية مكدسة . . فإنها ليست من غرضنا في هذا الصدد وإنما الذي نهدف إليه . . أن نستشف من خلال حادثة أو حوادث ، ما وراء النص من عوامل الفخر بالأم ، ونوازع التقديس لمكانتها ، وحوافز الثورة لما عساه أن يجرح كبرياءها الأصيل . .



ملاحظة العربي كان يعرف وضع الأمومة وما يعكسه هذا الوضع على أبنائها من ظلال ، فقد حرص على أن ينتخب لأولاده أما لاتهون ، ولا تطأطىء في مواقف الفخر ، ومجالات المباهاة . . قال أعرابي لبنيه : يا بني . . إني قد أحسنت إليكم صغاراً ، وكباراً ، وقبل أن تولدوا . قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال : اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها !!

قد يقال هنا : إن ذلك كان وحي شعور الرجل المؤمن بدونية المرأة . . إنه كان لوناً من ألوان العطف على الكائن الأدنى ليستشعر الحياة . . ويحس الكرامة . . ولم يكن لذلك كله من أثر عميق في نفسية المرأة . . ينعكس على موقفها . . أو يورق في واقعها الحياتي . . فلقد كانت دائماً تعيش في إطار من احساسها العارم بدونيتها ؟ ! ! ولكنني لست من هذا الرأي . . ولا أستطيع أن أكون منه . . فليس بصحيح أن ذلك كان إحساس العربي « الرجل » فحسب . . بل كان كذلك إحساس العربية « الأنثى » . . كانت تعرف دورها كأم . . ومكانتها كصانعة أجيال ، ومن هنا فقد تأبت على كل ما يشدها إلى الحضيض ، أو يعفر جبهات أبنائها . .

حدثوا أن سلمى الغفارية وقعت في حبائل الأسر . . وتزوجها الشاعر الفارس عروة بن الورد ، وأنجب منها أولاداً . . وأحبته مل عيونها . . ووسع أشواقها . . ولكنها رغم ذلك كله حدثته ذات يوم قائلة : ألا ترى ولدك يعبرون بأهمهم ويسمون بني الأخيذة ؟

(١) أنظر في هذا كتاب « أم النبي » للدكتور بنت الشاطئ .

قال : فماذا تريدین ؟

قالت : أن تردني إلى قومي حتى يكونوا هم الذين يسلمونني اليك ! !

هذا موقف من مواقف الصدق الفطري ، الذي يوائم طبيعة العريية الحرة ، حين تثور في أعماقها المتفتحة نوازع الاستعلاء على نوازع الهبوط . . . وحين تنتصر في نفسها كرامة الإنسان على خوالج المحب العاشق المفتون . . .

هذه نظرة عجلت نالقيها على مكانة الأم في المجتمع الجاهلي . . . لنخلص من ذلك إلى أن الأمومة في كل طور من أطوار الزمن معنى تقدسه الأجيال ، حتى ولو لم تقم على حراسته شريعة . . . حتى ولو لم تؤكد رسالات الهداة المصلحين . . .



الأمومة وصية من وصايا مصر القديمة يوجهها والد الى ولده فيقول : « يا بني » ضاعف الخير لأملك ، وأحملها إن استطعت كما حملتك . . . فطالما تحملت عبثك ولم تلقه على ، وعندما التحقت بالمدرسة وتعلمت الكتابة فيها . . . واطببت دوني على الذهاب إليك بالطعام والشراب من دارها كل يوم ، فإذا شبيت وتزوجت واستقررت في دارك فضع نصب عينيك كيف ولدتك أملك . وكيف حاولت أن تربيك بكل سبيل ! ! .

هذه منزلة الأمومة في المجتمع الجاهلي . . . وفي غيره من المجتمعات . . . فهل كان للطفولة مثل هذه المنزلة ؟ أم أن الأمومة قد استأثرت بكل ما هنالك من عواطف الحب ، ومشاعر التكريم ؟ الذي نعرفه . . . وتؤكد السواند التاريخية الصادقة ، ان مثل ما قد حظيت به الأمومة في المجتمع الجاهلي - لأنها سبب وجود ومعدة أجيال - قد حظيت به الطفولة في هذا المجتمع ، لأنها امتداد هذا الوجود ، ولأنها لبنات هذه الأجيال . . . وهو وضع طبيعي لا ينبو عن فطرة البشر ، ولا يصادم حقائق الأشياء . . . فهل أستطيع مثلاً أن أعشق الأرض الخصبية وهي جرداء من كل شيء . . . حتى ولو كانت في أطوائها طبيعة الخصب المعطلة ملء الوجود . . . أم تراني أعانقها وأعشق ذراتها بعيوني حين تفتح هنا عن ثمر . . . وتبتسم هناك عن شجر . . . وتتألق في أرجائها الفساح آلاف الورود ؟ إنني أحبها هكذا . . . لأنني أحب ما على صدرها الرحيب من معطيات . . . فاذا جاء العربي وأحب الأمومة وبارك خطواتها البيضاء . . . فلا أنه يرى فيها طبيعة الأرض المثمرة ، أو طبيعة الشجرة المزهرة ، أو طبيعة الأنثى التي تنبت من أعماقها براعم الحياة . . .

الطفولة إذآ . . . أهذاب أعين الرجال ، وفلذات أكبادهم تمشي على الأرض . . . أليس العربي كان

مجنوناً بغريزة الاستملاء ، والتفوق على من عداه ؟ وكيف يتحقق له ذلك الأمل ما لم يكن له من أبنائه جيل وفير ؟ إن أقرب مثل يمكن أن نسوقه هنا في هذا الصدد . . موقف عبد المطلب جد الرسول . . حين نذر - إن رزقه الله عشرة بنين - أن يذبح واحداً منهم تقرباً إلى الآلهة ، وشكراً لها على عطاياها . . وما أهول الفداء الذي كاد أن يسفح على مذبحه الرهيب دماء عبدالله . . والد النبي العظيم . . إن ذلك لم يكن نتيجة عفوية لتروة طائشة ، أو لوثة حمقاء . . إنه كان وليد إحساس عميق بخطورة الولد في مثل هذه البيئة التي تفجرت عن مثل هذا الوضع الرابع الرهيب ! !

■ **وتسألني:** فما تقول في موقف العربي من طفولة أخرى ، غير طفولة الولد . . طفولة البنت ؟ لقد نعى القرآن عليه انقباضه الشاحب حين كان يبشر بمولودة أنثى . . ولطالما ارتعشت في ذهنه الأسئلة :

أَيْمُسِكُهُ عَلَى هُونٍ ؟

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟

وكم وارى التراب الأصم من طفولات نسائية عزلاء ؟ ! !

■ **فأجيبك :** أجل . . لقد كان العربي يأسى لأن وليده أنثى . . ولقد كان كذلك يواريه التراب . . أو يوشك أن يواريه التراب لأنه ليس من فصيلة الذكور ! ! ولكن . . هل فعل الأعرابي ذلك كله لأن طبيعته المركوزة في أعماقه - كأنسان - تعطفه على الذكر ، وتباعد بينه وبين الوليدة الأنثى ؟ أم أن هناك بواعث خفية ، وحوافز خلقية دفعت به الى مثل هذا التصرف الراعن الويل ؟ أكاد أؤكد أن الحب - لا الكراهية - هو الذي كان يدفع بالعربي الى هذا المنحدر . . فلقد كان لفطريته الساذجة يرى في البنت كائناً زجاجي المصير ، إن تعرض للخدش أو للتخطيط فلن تلتئم جراحاته النازفة بكل ما على الأرض من قدرات . . كان يحبها أكثر مما يحب الولد . . أو كما يحب الولد . . ولذلك فقد كان يحيا بمشاعره الرهيفة في ابعاد مصيرها المنشود ، فيهوله ما قد تتعرض له الأثيرة المرموقة من أذى . . أو ما قد يلحق بها من العار . . فينطلق في حمى ذلك الإحساس المستوفز الطافر الى مواراتها حية في التراب . . أنا معك في أن أسلوبه في التعبير عن نفسه كان ضرباً من الخطأ . . وجنوحاً ذاهلاً عن سواء الطبيعة . . ولكن . . ألسنا جميعاً ذلك الرجل ؟ ألسنا نعص الرضيع من كثرة ما نحبه ؟ . . ألسنا نضمه إلى أحضاننا ضمة هوجاء . . قد تذهب بحياته الغضة . . فاذا هو هباء . . في هباء ؟ ! . . ثم إنني لست عن هذا وحده أتحدث . . أعني : لست عن تصرفه الخاطيء أبحت . . ولكنني أغوص على البواعث البادية أو المستترة وراء هذا التصرف أو ذاك . .

■ لقد كان العربي يحيا في بيئة عريانة ضاحية ، متعرضاً لانقباضة من هنا . . أو فجاءة من هناك . . فاذا أبناؤه أشلاء ممزقة . . وإذا بناته سبايا مسترققات . . وهو قد أعد أبناءه من قبل لأمثال هذا المصير . . ولكن

بناته حينما يتعرضن لشيء من ذلك ولو يسير . . فهو شعور يمحض العربي . . ويقضه . . ويجعله دائم الأهبة لمصيره المرتقب . . إن لم يكن بتحصين قلاعه - وقليلًا ما يستطيع - فليكن باقفازا مما يحب ، أو مما يقدس . . أو مما يأسى لفراقه وضياعه . .

واستمع إلى القرآن حيث يقول : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! النحل ٥٨ ، ٩٩ » وصدق معي قليلاً في قوله « على هون » فلعلنا في ظلالها نلتقي . .

واستمع معي إلى الشاعر العربي ، الذي يرى في الطفلات عالماً من العواطف الجياشة والأحاسيس النبيلة المنهجرة التي تشده الى الحياة ، وتعمق صداقته للوجود :

لولا بنات كزغب القطا	رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع	في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا . . تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم	امتنت عيني عن الغمض

لقد كانت اهتمامات العربي الجاهلي بالطفولة معادلة تماماً لاهتماماته بالأمومة ، لا فرق في ذلك بين طفولة « ذكر » وطفولة « أنثى » إلا بمقدار ما تتباين غرائز البشر ، وتتباين طبيعة الأجواء البيئية المختلفة . . وليس في ذلك ما يستغرب أو يعاب ، لأن طبيعة الحياة هكذا . . حيث لا نجد ههنا نقصاً . . لا بد أن نجد ثغرة في كمال !!



انتقلنا إلى مجتمع كالمجتمع المصري القديم لنقف على حقيقة وضع الطفولة فيه ، لراعنا فازا ما تلقى هنالك من عطف ، وما تحاط به من رعاية وتكريم . . وهذا ورد من متون التوايت يتحدث على لسان والد نعم بسعادة الدارين بفضل ولده فقال : « أصبح مقعدي في حوزتي ، ولم يكن أبي هو الذي وهبه لي ، وليست أمي هي التي وهبت لي ، ولكنه وريثي الذي أعطاني إياه . . » .

ويكتب صديق إلى صديقه الثري العقيم : « إنك وإن تكن موفور الثراء إلا إنك لم تعمل على أن تهب شيئاً لأحد ، وأولى بمن لم يكن له ولد أن يتخير لنفسه يتيماً يرييه ، فاذا نما عنده صب الماء على يده ، وأصبح كأنه الولد البكر من صلبه . . هكذا . . » .

نحن إذاً على وفاق . . على وفاق من أن كل المجتمعات قد أعطت للأمومة الرائعة والطفولة الخضراء ما

يستأهلان من عطف ، وما يستحقان من تكريم ، على تباين هنا وهناك في « مقادير » العطف والتكريم ومفاهيمهما » كذلك !


فإذا انتهينا إلى هذه النتيجة الواضحة الخلية فماذا يبقى هناك ؟ أليس يقال : أي شيء فعله الإسلام في هذا الصدد سوى أنه أقام على هذا الجدار الشامخ سطرّاً أو سطرين . . أو سطوراً ؟ ثم ألا يتعارض هذا مع ما أسلفنا من مطالع هذا البحث من أن للإسلام في هذا السبيل فلسفته الخاصة واطاره الذاتي ؟ أجل . . إنه يتعارض في مفاهيم النظرة العجلى والبداية المبتسرة ، التي ترى في كل قانون من قوانين الحياة شكله العدائي الذي لا يلتقي مع غيره من قوانين . . ولكنه لا يتعارض أبداً مع مفاهيم النظرة المستأنية ، والبديهة الصافية ، التي تحاول في صداقة وحب أن تعقد بين نوااميس الحياة ، وقوانين الوجود وشائج القربى وأسباب اللقاء . .

لقد كان للإسلام توجيهه السليم بالنسبة لغرائز البشر فلقد عدلها لتتسق مع مفاهيمه ، وتتساوق مع طبيعته كدين . . إن الإسلام لم يحرق نبات الأرض لأنه نما في ظلال غير ظلاله الفيحاء . . ولكنه مع ذلك أكد شخصيته المميزة ، وطبيعته الغنية ، وفلسفته النابعة من أعماقه ، لا الوافدة اليه من هنا . . أو من هناك . .

ومن خلال هذه الصفحات القادمة . سنبصر معاً مطالع هذه الفلسفة ، ومفاهيم هذه النظرة ، لنؤمن معاً بأن الإسلام دين رائد فذ ، له في عالم الطبائع والمثل والقوانين ، دور الريادة الحكيمة العالمة ، التي تشكل في تاريخ البشرية محوراً لا يهتز ومشعلاً لا يخبو ، ونبعاً لا يغيض . . ولنبدأ برحلتنا . . أعني رحلة الإسلام مع الأمومة في القرآن . .



الأمومة في القرآن

من الطبيعي جداً أن يلتفت الباحث في موضوع  كهذا أول ما يلتفت إلى القرآن الكريم ، كتاب الاسلام الخالد ، ودستوره الجامع ، وموسوعته الشاملة ، ليرى كيف أن للأمومة والطفولة فيه ذروة سامقة ، وقمة شاهقة ، وحديثاً مع الايام لا يبلى .. ولا يمل .

أليست الأم مصدر حياة ومرفأ حنان ؟ أليست مصدر إشعاع يشكل هذه المعجائن الطيبة ويدفع بها إلى خصم الوجود ؟ أجل إنها كذلك .. ومن هنا فقد حرص القرآن على

تزكيتها ، وتكريمها والارتفاع بها إلى مستوى شاهق نبيل . .
وللقرآن في حديثه عن الأمومة أسلوب متميز ، وفلسفة
معينة ، من العسير على كل ذي بديهة متفتحة أن يلمحها
من خلال السطور .

ولكن . . أليس من الأجمل أن نرجىء الحديث القرآني
عن الأم في اطاره العام ، حتى نقف أولاً مع أمومات
ثلاث ؟ أم اسماعيل . . وأم موسى . . وأم المسيح ؟

إن الحديث القرآني عن هذه الأمومات يبرز لنا إلى حد بعيد
ضخامة العبء الذي تنهض به الأمومة من جهة . . وروعة
الاحتفاء القرآني بهذه الناهضة بأعبائها من جهة أخرى . .
وحين تتكامل هذه الصورة ، بظلالها المرفهة وأضوائها
الوهاجة . . فإنها تعطي من غير شك انطباعاتها الصادق في
هذا الصدد العظيم . .



أم اسماعيل (١)

اسماعيل هاجر . . هي تلك الجارية الأمة ، التي لا حول لها ولا طول . . جاءت بها السيدة
سارة الى فلسطين من مصر . . بعد رحلتها مع زوجها ابراهيم ، حين خرج بدينه الى هناك ،
نافضاً عن كاهله العظيم غبار الوثنية ، وأوقار الضلالات . .

وكانت سارة عاقراً . . لا تحمل . . ولا تلد . . فأشأت على الخليل أن يبنى بهاجر فبنى ! ثم حملت
هاجر . . وولدت . . فولدت الى جوار وليدها المحنة ! !

قالت سارة لابراهيم : أنا دفعت اليك جاري . فلما حملت ترفعت علي ! ! فرد ابراهيم في حنان
صيّب . . ورناء داعم لتلك الأنثى المجروحة الغيرة : هي جاريتهك تفعلين بها ما تشائين ! حينئذ ظهر الغضب
في صوت سارة . . وأقسمت ألا يؤويها وصاحبته بيت بعد اليوم ! !

(١) استندت في هذا السرد من كتاب « أم النبي » لذكورة بنت الشاطي ومن التوراة .

وبدأت خيوط المأساة تتجمع وتشابك . . لتنفرج من بعد وتعتق . . حينما حمل ابراهيم زوجته هاجر وابنها اسماعيل . . وانطلق بهما ضارباً في التيه . . وعند ربوة حمراء تسامت أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم وليده الغض . . وأم وليده الغزلاء . . وما كان لدى الأم ووليدها من رزق في هذا الوادي الجديب الأجرد . . سوى جراب فيه تمر وسقاء فيه ماء . . ولا بد للتمر أن ينفد ، ولا بد للماء أن يتلاشى . . فماذا يخبيء الغيب لهما من مصير ؟

■ لافسح أنا المجال لابن عباس يحدثنا حديث هاجر الأم . . وابنها اسماعيل الرسول . . يقول ابن عباس :

« . . ثم جاء بها ابراهيم وابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ من أحد . . وليس بها ماء . . فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . . ثم قضى ابراهيم منطلقاً . . فتبعته أم اسماعيل

■ فقالت : يا ابراهيم : أين تذهب وتركننا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . .

■ فقالت : الله أمرك بهذا ؟

■ قال : نعم . .

■ قالت : إذن لا يضيعنا . . ثم رجعت فانطلق ابراهيم . . حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . »

وجعلت أم اسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء . . حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى . . فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر . . هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . . فهبطت من الصفا . . حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي . . ثم أتت المروة فقامت عليها . . فنظرت هل ترى أحداً . . فلم تر أحداً . . ففعلت ذلك سبع مرات . .

قال ابن عباس : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « فَلْيَذَلِكِ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا » . . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً . . فقالت : صه . . تريد نفسها . . ثم سمعت أيضاً . . فإذا هي بالملك عند موضع

زمزم ، فبحث بعقبه . . أو قال بجناحه . . حتى ظهر الماء . . فجعلت تخوضه . . وتغرف منه في سقائها وهو يفور بعدما تغرف فشربت وأرضعت ولدها .

فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة . . فان هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه . . وان الله لا يضيع أهله . . وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية . . تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .

فكانت كذلك حتى مرت بهم قافلة من جرهم مقبلين عن طريق كداء . . فترلوا في أسفل مكة . . فرأوا طائراً عائقاً فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء . . لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . . فأرسلوا جرياً أو جريين . . فإذا هم بالماء . . فرجعوا وأخبروهم بالماء . . فأقبلوا وأم اسماعيل عند الماء .

فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

قالت : نعم . . ولكن لا حق لكم في الماء . .

قالوا : نعم . .

وشب الغلام « اسماعيل » وتعلم العربية منهم . . وأعجبهم . . فلما أيفع واكمل روجوه ، وماتت أم اسماعيل . . لترك في الأرجاء حديثاً هائلاً ضخماً . . دائماً يدوي . . وكيف تنسى ذاكرة الزمن ، أو راعية الأيام أم اسماعيل . . وقصة بطولتها الخالدة تلهج بها ملايين الألسن كل يوم . . فيما يتلونه من كتاب الله ، وآياته الغراء . .



النتي الملح من خلال الجهاد الرائع الذي كابדתه ام اسماعيل عبر نزولها في واد غير ذي زرع ، وذلك بمعاناتها للظمأ القاتل الرهيب . . ثم مسعاها اللاهف بين الصفا والمروة باحثه عن خيط يشدها ووليدها الى الحياة . . إني الملح من خلال ذلك كله . . ليس انفاذ وعده الله فحسب . . بل كذلك تخليد دور الأمومة الرائعة ، التي تحترق لتضيء للملايين .

ومع إسدال الستار على هذه القصة القرآنية ، نحس من أعماقنا المسلمة عن كذب أن صوت القرآن العظيم غص عذب ، يردد في مسامع الأجيال :

« وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ . . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »



ام موك (١)

الأصدقاء الأخيرة الحلوة لهذا الترتيل . . نصعد معاً إلى جبل آخر من جبال النور . . لنعانق
أبعاد ملحمة أبطالها . . أم . . ونبي . . وشخص . . أشقات متباينة من البشر المتباينين . نحن
مع موسى وأمه . مع الأمموة البطلة الفدائية ، التي صممت على أن تهدي الحياة ربيعها الأخضر متمثلة في بشر
رسول . . فعاشت من خلال هذا العمل العملاق . . صورة حية وامضة لكل ما في الأمموة من نداوة الحب . .
وخصب العاطفة . . واثراء الوجدان . . وبسالة الاصرار . .

نحن مع موسى وأمه إذن من خلال ما يحدثنا به القرآن(*) . وما أصدق حديثه وأعذبه وما أخلد آياته
وأروعها . . والقرآن هنا لا يحدثنا عن والد موسى(*).. وإنما يخص بالذكر أمه . . لأنها كانت بطلة الموقف . .
وحاملة عبئه . . والمناضلة بعواطفها الأصيلة عن وليدها الأثير . .

وتبدأ القصة بداية رابعة . . وشاحبة . . تبدأ برؤيا يراها فرعون . . تؤرق ليله ، وترتق نهاره . . وتركه
في خضم متلاطم من الهواجس السافكة . . والوساوس الخائقة ، والرؤي الشرهاء فيجمع في ذهول كهنته
وسحرتة ، وكل المعبرين والمنجمين . . ويسألهم تأويل رؤياه . . فيقولون : يولد في بني اسرائيل غلام يسلبك
الملك ، ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك من أرضك ، ويبدل دينك ، وقد أظلك زمانه الذي
يولد فيه ! » .

وهنا يجن جنون فرعون . . وينفجر في حناياه طوفان من الغضب العارم . . فيأمر في لؤة حمقاء بقتل
كل غلام وليد ، حتى لا يعانق الحياة هذا البارغ المنتظر الرهيب !

(١) المراجع السابقة . . وقصص الأنبياء للإمام الثعلبي .
* ملحوظة : يلاحظ أنه ينسب إلى القرآن أشياء ليست فيه وإنما وردت في الآثار .

وبين هذه السحب المتراكمة المخيفة ولد موسى الكليم . . وبأله من ميلاد مفزع . . ذلك الذي يجيء عبر أنهار من دماء سبعين ألف شهيد وليد . . وكأنما أفزع أمه أن يولدها غلام . . لأنها تعلم مصيره المحتوم . . ونهايته الأكيدة . . إلا أنها بحافز الحب الخلاق الذي يفرش دروبها المؤمنة . . تخبيء وليدها وراء أهداب العين . . وخلف أحناء الضلوع . . ولكن . . إلى متى يا أم موسى ؟

وتصيح في أمومة حادية معذبة . . فإذا بوحى هادئ منغوم يتردد في خلدها المرهف :

« أَنْ اَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ، فَاقْدِفِيهِ فِي الْبَيْمِ ، فَلْيُلْقِهِ الْبَيْمُ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ »

وتفعل الأم ما أمر به الله . . وتلقي وليدها . . في النيل . . !

وكانما جاشت نفسها حشرات بعد أن رأت الأمواج الغاضبة تتدافع في جنون . . حاملة تابوت وليدها الغض ، تتأرجح به يمنة ويسرة . . وتغوص به مرة ، وتطفو به أخرى . .

فهمست وهي تراجع قافلة إلى دارها في ذهول : أليس كان في قتله راحة أندى من أن أطوح به هكذا في ضباب الضياع ؟ . . وكادت تنهالك من الأسى . . « لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ! .



الموج بالتابوت . . أو يمضي التابوت بالموج . . ليرسو أمام قصر الطاغية . . ويلمح الجواري إلى جانب الشاطئ يترجرج . . ويتأرجح . . فيلتقطنه . . ويذهبن به إلى آسية امرأة فرعون وتفتح آسية التابوت . . وتعانق صباحها ابتسامة « طِفْلة » يضاء ترسم على أعماقها الجذبية صورة الأمل المرتجى . . وبراعم الحب الضامى اللهيف !

وتذهب به إلى فرعون في لفة ظمأى تستوبه إياه . . قائلة في ارتعاش انثوي صارخ : فرعون . . « قُرَّةُ عَيْنِي لِي وَلَكَ . . لَا تَقْتُلُوهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وتتنزى انتفاضة الغضب في عيني الطاغية . . مُصِرًّا على أن يعانق الطفل مصير آلاف من الأطفال سبقوه . . ولكن آسية اللهيقة ما تزال به — تهدد ثوته — وتتسرب من نوافذ العاطفة إلى قلبه الصلد . . حتى يتلاشى أو ينهار . . ويأمر فرعون أن يستبقى الغلام . .

■ ولكن .. ما بالناس قد تركنا أمه هناك ؟ .. لترجع إليها على وشك .. فإنها ما زالت لهيفة عبرى .. تتحسس أخباره ولا صدى .. وتقتفي آثاره ولا شبح .. إنها ما زالت كالطائر المجرور ، الذي فقد أفراخه الصغار ! .. إنها ما زالت تلوب ظامئة حول أبعاد رحلته تريد أن تعرف ما مصيره .. فتهتف بأخته مريم : (قُصْبِيه) .. وتمضي الفتاة جانب النهر .. تتسمع حتى خفقات الصدور ، وهمسات الجفون ، حتى تقف أخيراً على طرف من الخيط الذاهب هناك .. في قصر فرعون .. إن شقيقها الطفل وراء هذه الجدران .. إنه مُصِرٌّ بكل ما في طفولته البريئة من تشامخ عنيد ألهمه الله إياه ألا يقرب من هذه الأثداء المأجورة ثدياً واحداً يرضعه ..

■ وحين ترى الفتاة اللهفانة جارية من جواري القصر .. تدنو منها في جلد محاذر مشبوب وتهمس في أذنها : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » . فترقص ابتسامة جذلى في عيني الجارية ، وتقول : أجل .. أجل .. من هؤلاء يا أختاه ؟ وتمضي بها عجلانة إلى سيدتها آسية ، ففسر الفتاة إليها - في حذر - بخبر الموضع التي ليست سوى أم الوليد .. وحين يؤتى إلى أمه الوالهة .. تتطلع إليه في تشوف مبهور .. وتضمه في جذل خائف إلى صدرها الحاني .. فيرضع الطفل حتى يروى .. بين ذهول الجواري وتوثب مريم في حذر بهيج ..

■ وتستدعي ربة القصر أمه إلى قصرها .. تريد أن ترضع الغلام هناك .. فتتأبى هذه وتمنع حتى تنزل السيدة على إرادتها .. على ارادة الاصرار في موقف الأم .. التي ما زالت تحيا وراء ستار الموضع الحانية الرؤوم ..

■ وحين تشارف هذه المرحلة .. نتسمع من بعيد .. وعن كذب إلى قول الحق سبحانه :

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ..

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ..

إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ..

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَسِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ..

وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ..

فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ..

وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ..

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .
 وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ...
 لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .
 وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
 وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ...
 فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

وكما يأتلق شعاع الضحى بعد رحلة ربداء في اغساق الظلام . . كان ميلاد المسيح الهادي رجفة زلزلت شوامخ الطقوس الدينية المجدبة ، التي لا حياة فيها ولا روح !
 والقرآن كان كذلك — سجلا حافلا بمضامين هذا الميلاد الغريب . . وكأنما ولد عيسى على هذا النحو ليلفت إليه أبصار اليهودية المعصوبة ، التي تفوقعت داخل مفاهيم محفلية جوفاء . . نضب فيها زيت الحياة الخالد ، وخبا في سراجها وهج الروح المتألق الشعاع . .
 والقرآن يتحدث حين يتحدث لا عن أب لعيسى رعرعه ، ولا عن أسرة له أنجبته ، ولكن عن أمه الطاهرة البتول ، التي خلدت الأمومة في أنصع صفحات تاريخها الوضيء . . تلك الأمومة الفذة ، التي تعرضت لامتحان باتر رهيب ، فلم تنه . . ولم تنهالك . . وإنما شمخت بكل ما في كيائها الباسل من اباء . . متحدية تخرص المتخرصين ، ولغظ اللاغطين ، ماضية على طريقها الوامض ، كأنها شجرة فارعة هيفاء . . لا يضيرها أبداً أن تسقط العاصفة من هنا ورقة . . أو من ههنا ورقات !
 إنها مريم . . التي نشأت في بيت دين وفضيلة وعلم ، والتي كان أبوها شيخاً جليلاً رائعاً في قومه . . فلما حملت بها أمها نذرتها لخدمة الهيكل . . « إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ - وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي أَعِيدُهَا

بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

■ وأمضت الفتاة صباحها في المحراب عابدة . . حتى إذا أراد الله لشمس رسالته أن تشرق على يدي رسول ، بعث إليها من يبشرها في خلوتها الساجدة « بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » . . وتفزع الفتاة من هول هذه البشري . . وتضرع في تساؤل مبهور : « قَالَتْ : أَتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ : كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيِّئٍ وَلَنَجْعَلَ لَكُمُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا » .

■ « فَحَمَلَتْهُ » . . وخافت ألسنة مبسوطة من طول ما لوئنتها الأراجيف . . « فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا » . ثم وضعت وليدها في مذود . . وصرخة مقرورة مرتعشة تهتف في أعماقها : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ، وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا » ثم . . على خجل واجف . . وتردد مذعور « فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » .

ولكن القوم ما زالوا بمرم ووليدها الرسول . . حتى هاجرت به إلى مصر قرابة اثني عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل في أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد في منكبها ، والوعاء الذي فيه السنبل في المنكب الآخر . .

ولكن إرادة الله الغالبة ، عادت بالمسيح النبي مرة أخرى إلى هذه البقاع ، فجلبل فيها رادعاً وواعداً . . حتى أتم رسالته .

وهكذا ينسدل ستار متألق الأبعاد من روعة الحديث القرآني العظيم على أمومات ثلاث ، لترك للأجيال من بعد . . أناشيد من نور ترددتها . . وتحيا في معانيها ، فإذا كل المعاني الهابطة البليدة قد استحالت إلى تسامق شاق ، وإذا كل الحياة السنة تلهج بتمجيد دور الأم . . إن لم يكن بواقعها المعاش . . فيما اسلفت في التاريخ من أمجاد بطولية شماء .



ولكن

ترى . . هل هذا هو كل ما دار في القرآن الكريم من حديث حول الأمومة ، ودورها الباسل . . وكفاحها النبيل ؟ الذي أعرفه . . أن ذلك لو كان كذلك لكفى . . ولكن القرآن لم يدر الحديث عن الأمومة في هذه الإطارات الثلاثة فحسب ، وإنما أداره مرات ومرات ، تارة مستقلاً بذاته ، منفصلاً عما عداه .. وطوراً في معرض الحديث عن الأبوة والأمومة جميعاً .. ولو أننا حاولنا تتبع ماجاء في هذا الصدد بشيء من التفصيل الرحيب . . لضاق بنا المجال ، وامتدت بنا الآماد ، ولكننا فحسب ، سنشير إشارات خاطفة عجل . . وسنضيء على كل مفرق من مفارق الطرق شمعاً أو شمعات . .

ان لكلمة « الأم » في القرآن — حتى من الزاوية اللغوية البحتة ، ظلالة رائعة ، وتهاويل مشرقة ، كأنها رمز يوحى بما للأمومة من أوج وما لمكانتها من سمو . .
فحين يذكر الله رسوله بفضل عليه يقول :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ »
وحين يضع في يده السلاح الباتر لهداية الجموع يهيب به :
« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .
إننا نحس أن في كلمتي « أم الكتاب » ، « وأم القرى » تكريماً حسيماً لأشياء ومواطن . . نحسه من خلال هذه الكلمة الواضحة المشعة البيضاء . .

وفي مواطن الهول والاستنفار لا تجدد كلمة مثل كلمة « الأم » تثير بها عواطف الأغيار

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَالْفَقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .



ما أجمل

أن يعبر القرآن بكلمة « أم » بدلا من الاسم الوضعي للمرأة . . أي امرأة « وَأَوْحَيْنَا إِلَى « أُمِّ » مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » .. « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ « أُمِّ » مُوسَى فَارِغًا » . . إن القرآن هادف حين يعبر هذا التعبير الجميل ، لما لهذه الكلمة من ظلال تلقى على الحدث طاقات معينة من الشعور والانفعال . .

والتدليل على قدرة الله القادر يتحدر صوت القرآن رائعا وجيلا « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » .. « يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثَ » .
« هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا

ولربط القيادة بالجموع بطاق القرآن هذه الكلمة الرائعة الخالدة : « النبي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .. وما نعرف في لغات البشر تعبيراً يسمو إلى هذه الذروة ، التي تحفر في أعماق الملايين حب النبي .. وحب زوجاته .. أمهاتنا الأثيرات !

وفي مجال التذكير بمصدر الوجود الإنساني ، وبكل المعاناة الراحفة ، والعذابات القاصفة يتحدث القرآن حديثه اللاهب : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ » « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا »

وحين يتحدث المسيح في المهد يقول في مطلع ما يقول : « وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا » هذه هي اللفتات القرآنية الوامضة التي خصت الأمومة بحديثها العذب وتنغيما المسحور ، وهناك لفتات قرآنية أخرى تناولت الأمومة بحديثها الفياض ، ولكنه تناول ضمنى في معرض الحديث عن الوالدين جميعاً ... وأرهف السمع معي إلى هذه الآيات :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ - وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »
« وَاعْبُدُوا اللَّهَ - وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ - عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . »
« وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . »

وهنا أفسح المجال للشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - يحدثنا في كتابه « الإسلام عقيدة وشرعة » فيقول : « والذي أحب أن أنبه إليه أن القرآن حينما جاء بوصايا احترام الوالدين جميعاً . وبتخصيص « الأم » بنوع من العناية .. جاء منظماً لما تقتضيه فطرة الخلق والتكوين ، وما تقتضيه عاطفة الحنو والشفقة التي أودعها الله في قلب المرأة لولدها ، وبها احتملت ما احتملت في الحمل والارضاع والتربية الأولى والسهر على حفظ صحته وسلامته مما يخطو به في مراحل الحياة الشاقة » ..



لست تجهل ذلك الموقف القرآني الواسع الذي تعكس نبضاته الإنسانية سورة « المجادلة » .. ولكن لا بأس من أن نقف أمامه لحظات ، نعيشها مع ذلك الأفق المترامي العملاق . إن

وأظنك

الاسلام لم يرتفع بالانسانه الأثني إلى مصاف المساواة مع أخيها الرجل فحسب.. بل انما هو في مصاف مساواة
صفحة الكتاب الذي لا يضيع رأيه في هذه الآراء.. أليس من حقها ان تكون لها نصيب من
الله.. صلى الله عليه وسلم.. تشكو له زوجها أنه من غير الصالحات.. حينئذ قال لها رسول الله
وكان الرجل في الجاهلية إذا قال مثل هذا تزوجت حرمة عليه، أو عاقله.. فكانت تتركه وتذهب
خو لا يبرء.. لا تصل إلى والد قلت ما قلت حتى يترككم الله ورسوله..

ثم أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالت : يا رسول الله . . إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب
في ، فلما خلا سني ، ونثرت بطني ، جعلني عليه كأمه وتركني إلى غير أحد ، فان كنت تجد لي رخصة
يا رسول الله تنعشني بها وياها فحدثني بها . .

فقال لها النبي - صلى الله عليه وسلم - « ما أنت في هذا يا أوسى ؟ »

فقالت : ما ذكر طلاقاً يا رسول الله ؟ وأخذت تجادل النبي وتكرر عليه القول ، والنبي لا يزيد على أن
يقول لها : « ما أمرتُ في شأنك بشيء حتى الآن » . . هنالك تلجأ المرأة إلى أمومتها عساها أن تطرق
بها باب السماء فيفتح . . أو تعطف بها قلب الرسول فيضرع من أجلها الله . .

فقول : يا رسول الله . . إن لي منه صبية صغيراً . . إن ضممتهم اليه ضاعوا . . وإن ضممتهم اليّ
جاعوا ، وجعلت ترفع طرفها الى السماء وتقول : اللهم إني أشكر اليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك . .
وما برحت حتى نزلت الآيات ارسالا :

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِكِ ، وَفِي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . . »
إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ بِصَبْرِ النِّسَاءِ الَّتِي يُظَاهِرُونَ صُكْرًا مِنْهُنَّ . . . وَفِي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . .
الَّتِي وَلَدَتْهُنَّ ، وَاتَّهَمَ لَبَّاءُ لَدُنَّ سَفَهًا . . . وَفِي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . .
بِظَاهِرٍ مِنْ نِسَائِهِمْ لَمْ يَنْعَمُوا بِهِنَّ . . . وَفِي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . .
لِيُعْطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . . . وَفِي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . .
أَنْ يَتَمَنَّاهُ فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَمَنَّاهُ . . . وَفِي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . .
حَدَّثَنَا اللَّهُ وَلِلْكَافِرِينَ هَذَا كِتَابُ الْمَرْءِ . . .

في القرآن مجالات أخرى تتألق فيها كرامة المرأة « كأم » وإن لم تكن هذه المجالات مفتوحة أو مباشرة ،
ولكنها أبداً لا تستر أمام من يحاول التعمق ، أو يجهد في البحث ، أو يتأني في تأمل الآيات . .
إنني ألح من وراء الموقف القرآني في لحظات الطلاق ، بالتحكيم ، والوعظ ، والهجر ، والضرب قبل

الفراق . . . بم المراجعة الهينة الميسورة بعد الفراق . . . محاولة هادفة ، وجادة ، ومضيئة . . . للابقاء على قداسة « الأمومة » الفاضلة التي قد تتعرض بعد الطلاق لعزوبة قاسية . . . قد تنحرف بها هنا أو هناك . . . » والتلاتي
تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا» ..

وهكذا يظهر بوضوح وصدق مدى اهتمامات القرآن الكريم بالأمومة ، حتى ليخيل إلينا من طول ما تحدث عنها في جوانبها المتعددة الكثار . . . أننا بازائها الآن . . . كما تكون الأنامل الرقيقة الشاحصة ، المشيرة في خجل وارتعاش الى أبعاد فجر رائع جديد .



الإنجاز: محمد أحمد العزب

مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - بأسوط .

مؤلفاته :

- ١ - أبعاد غائمة (ديوان شعر)
- ٢ - مسافر في التاريخ (ديوان شعر)
- ٣ - دراسات في الأدب
- ٤ - دراسات في الشعر
- ٥ - دراسات في الفكر الاسلامي
- ٦ - التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث
مشاركاته في الحياة الأدبية :

له مشاركات في الحياة الأدبية من خلال الدوريات التالية :

التضامن الاسلامي ، والرابطة الاسلامية ، والدعوة ، وقافلة الزيت (السعودية) ،
والعربي ، والوعي الاسلامي ، والكويت ، والبيان (الكويتية) ، والأديب (اللبنانية) ،
والثقافة ، والشعر ، والأزهر (المصرية) وغيرها ...

إلى جانب إسهامه المستمر في الندوات والمؤتمرات واللقاءات الفكرية والعقائدية .
العنوان : القاهرة - الأهرام - بحري مدينة حسن محمد - شارع مكة .

